

المدرسة السياقية.

وعرفت هذه المدرسة أيضا باسم "مدرسة لندن" بزعامة "جون فيرث" John Firth، الذي أراد أن يجعل من الدلالة علما قائما بذاته، فقال بأن دراسة الدلالة هي المهمة الرئيسية للسانيات الوصفية، وقامت نظريته في هذا المجال على فكرة السياق التي عالجه علماء اللغة القدامى عند اليونان مثل "أفلاطون" و"أرسطو"، وعلماء العربية الذين أدركوا أثر السياق في فهم الكلام، وأشاروا إلى ذلك في دراساتهم اللغوية والبلاغية، كما اهتم بها الأصوليون ومفسرو القرآن الكريم، وهذه النظرية تلتقي في بعض جوانبها مع آراء اللغويين القدماء، ولكنها تختلف عن هذه الآراء من حيث المنهج والمصطلحات.

ورفض "فيرث" بناء فكره اللغوي على الثنائيات Dichotomies على خلاف "سوسير"، وكان شديد الحرص على وصف اللغة باعتبارها نشاطا معنويا في سياق اجتماعي معين، وركز في دراسة مختلف اللغات على دراسة المكون الاجتماعي، وذلك نظرا لتأثره بالأنثربولوجيا، وعلى تفكير "برونيسلومالينوفسكي" Bronislaw Malinowski "بشكل خاص، الذي استخلص من أبحاثه التي أجراها على قبائل بدائية أن اللغة تعمل كأداة تواصل ضمن نشاط إنساني متعارف عليه، فهي ضرب من النشاط وليست أداة تفكير، وما الكلمات إلا أدوات ولا يكمن معنى الأداة إلا في استعمالها، ولتوضيح فكرة المعنى استعان "مالينوفسكي" بمفهوم "سياق الموقف أو الحال" الذي تساعد الباحث على فهم معاني المفردات والجمل بالنظر في الوظائف التي تؤديها في السياقات الموقفية التي تستعمل فيها، ففي رأيه إذا أتينا بشخص أروبي إلى مجتمع بدائي وزودناه بترجمة حرفية للكلام المتفوه به فلن يستطيع إدراك معناه، إلا إذا كان واردا في السياق الذي جرى في إطاره الحديث.

وتأثر "فيرث" بهذه الآراء فكان متحمسا لدراسة اللغة باعتبارها ظاهرة اجتماعية، فقال بأن اللغة ينبغي أن تدرس بوصفها جزء من المسار الاجتماعي، أي كشكل من أشكال الحياة الإنسانية، وليس كمجموعة من العلامات الاعتبائية أو الإشارات، وبما أن استعمال اللغة هو الوسيلة التي تساعد على فهم المعاني المتعددة، فإن "فيرث" قام بدراسة مكونات اجتماعية بحتة، وذلك بالتركيز على العلاقات التي تربط اللغة بالمجتمع.

إن عالم اللغة في نظر "فيرث" إذا ما أراد الوصول إلى المعنى الدقيق للكلام يجب أن يبدأ بالكشف عن العلاقات بين الوحدات اللغوية المكونة له ومحاولة تعييدها وفقا لخواصها التركيبية، فالتحليل يعتمد على السياق والمقام، وذلك بملاحظة شخصية المتكلم والسامع وتكونها الثقافي وملاحظة العوامل الاجتماعية والمناخية وعلاقتها باللغة وقت الكلام، وأثر الكلام في المشاركين مثل الإقناع، الألم، السرور، الرفض أو الاعتراض... الخ، كما يعتمد

على تحليل الكلام إلى وحداته المكوّنة له للكشف عما بينها من علاقات داخلية حتى يحلّ الكلام من حيث معناه إلى مستويات فونولوجية مرفولوجية نحوية ودلالية، وهذا ما يدعى عند "فيرث" بالسياق اللغوي ContexteLinguistique، ثم سياق الحال أو الموقف ContexteSituationnel الذي يمثل العالم الخارجي عن اللغة وعلاقته بالكلام مثل الظروف الاجتماعية والنفسية للمتكلمين والمشاركين في الكلام.

ومن هنا فإنّ معنى الكلمة عند "فيرث" هو استعمالها في اللغة أو الوظيفة التي تؤديها، وهذا المعنى لا ينكشف إلّا من خلال وضع الكلمة في سياقات مختلفة، أي بمجاورتها لكلمات أو وحدات أخرى (المعنى هو الوظيفة في السياق)، يقول أصحاب هذه النظرية: "معظم الوحدات الدلالية تقع مجاورة وحدات أخرى، وإنّ معاني هذه الوحدات لا يمكن وصفها أو تحديدها إلّا بملاحظة الوحدات الأخرى التي تقع مجاورة لها"، وميّز "فيرث" بين نوعين من العلاقات ترتبط بهما الكلمات، وهما:

- **العلاقات الشكلية المتعلقة بالنص أو الداخلية:** وهي علاقات تربط وحدة لغوية معينة بالوحدات الأخرى المتتابعة على المستوى النحوي والصوتي (علاقات تركيبية)، وعلاقات تربط بين مجموعة من الكلمات التي نختار منها واحدة (علاقات استبدالية).

- **العلاقات الموقفية أو الحالية:** وهي علاقات تربط الوحدات اللغوية ومكوّنات الموقف غير اللغوية.

إنّ وحدات اللغة تكتسب معان شكلية ومعان موقفية، فالمعنى الشكلي يدرس على مستوى التتابعات، فكلمة "الطيور" - مثلا - يمكن أن ترد في سياقات مختلفة فنقول: تبني الطيور أعشاشها، تغرّد الطيور...الخ، وورودها في هذه السياقات يبيّن بوضوح معناها اللغوي، والمعنى على المستوى النحوي هو القيمة التي تكتسبها كلّ وحدة نحوية من خلال علاقاتها بالوحدات الأخرى، والمعنى في هذا المستوى يختلف، فمثلا اللغة العربية تستخدم مصطلح جمع للدلالة على أكثر من اثنين، وما زاد على الواحد هو مثنى، في حين أنه جمع في معظم اللغات، والشيء نفسه على المستوى الفونولوجي، فالصائت i- مثلا - في النظام الثلاثي i a u يختلف عن معناه في النظام الصائتي الرباعي a o i e وفي النظام الصائتي الخماسي i e a o u ، ويتمثل المعنى الموقفي أو الحالي في العلاقات بين وحدات اللغة والعناصر الخارجة عن اللغة، فمثلا كلمة "سلوك" في اللغة الإنجليزية تستعمل في مواقف سياقية اجتماعية مختلفة وتكتسب معنى موقفيا على مستوى الإملاء والكتابة، فإذا كتبت بـ: "Or" Behavior) دلّت على أنّ الشخص الذي استعملها أمريكي، وإذا كتبت بـ: "Our" (Behaviour) دلّت على أنّ مستعملها إنجليزي.

تدلّ الكلمات - إذن - على أشياء ومواقف، ويتضمن معنى الكلمة المنطوقة ثلاثة أشياء: مواقف تجاه المرجع، مواقف تجاه المخاطب، والغرض من وراء الكلام، والنمط اللغوي حسب "فيرث" يستخلص من المعطيات السلوكية الكلامية في سياق ما، وأطلق على السلوك

الكلامي اسم المعطيات الصوتية، وكلّ سياق عبارة عن وظيفة أو عضو في سياق أكبر، وهذه السياقات ثانوية (سياقات الموقف) تجد مكانا لها في سياق واسع وهو الثقافة.

ومن مميزات المنهج السياقي أنه لا يفحص الحالات العقلية الداخلية، إنما يعالج الكلمات باعتبارها أفعالا أو أحداثا تقبل الموضوعية و الملاحظة في حياة الجماعة، وهو لم يخرج في تحليله عن دائرة اللغة، ومع ذلك فقد وجّهت له بعض الانتقادات والتي تتمثل في: أنّ "فيرث" لم يقدّم نظرية شاملة للتركيب اللغوي، واكتفى بتقديم نظرية للمعنى، مع أنّ المعنى يجب أن يعتبر مركبا من العلاقات السياقية ومن الأصوات والنحو والمعجم، ولم يكن محدّدا في استعماله لمصطلح "السياق" مع أهميته، وحديثه عن الموقف كان غامضا، وبالغ كثيرا في إعطاء ثقل زائد لفكرة السياق، كما أنّ منهجه هذا لا يفيد من تصادفه كلمة ما عجز السياق عن إيضاح معناها، لذلك فإنّ قولنا له بأنّ كلمة معينة ترد في السياقات الآتية لا يفيد، لكن هذا يفيد الباحث الذي يريد تتبع استعمالات الكلمة في التعبيرات المختلفة.

واهتم "فيرث" بالفونولوجيا أو الصوتيات الوظيفية، وهي عنده تنظيم لمادة الفونتيك، أو هي الفونتيك الذي أصبح وظيفيا وعمليا، فأصحاب المدرسة الإنجليزية فرّقوا بين الفونتيك والفونولوجيا لكن من الناحية النظرية فقط، لأنهم حرصوا على إبراز قوة الاتصال بينهما، وأطلقوا عليهما تسمية "Phonetics"، فالفونتيك يجمع المادة الصوتية، والفونولوجيا يخضعها للتنظير والتفصيل، ومن ثمّ لا يمكن الفصل بينهما من الناحية التطبيقية، والفونولوجيا عند "فيرث" متعدّدة النظم Polysystematique، وعارض فكرة إقامة نظام واحد من الفونيمات لوصف اللغات، ورأى بأنّ النظام الصوتي لأية لغة يتألف من عدد من النظم (أنظمة متعدّدة) التي تحتوي على احتمالات بديلة تؤدي عملها في نقاط مختلفة من الوحدات الصوتية كمقاطع الكلمات Syllables وليس هناك سبب لمطابقة أو معادلة البدائل الصوتية في نظام ما مع بدائل أخرى في نظام آخر، فثمة نظام لنهاية المقطع وهو مختلف عن نظام بداية المقطع، وهذا يختلف عن فكرة "تروبتسكوي" الذي يرى أنّ التقابلات المحيطة يحققها فونيم أساسي، والذي أطلق عليه اسم: "الفونيم الأم أو الكلّي Archiphoneme" ففي الألمانية - مثلا - هناك تضاد بين t و d ، وهذا التضاد يصير محايدا إذا وقع هذان الفونيمان في أواخر الكلمات، حيث أنّ الفونيم t هو الذي ينطق به، فهو الفونيم الأم أو الكلّي.

وعارض "فيرث" - كذلك - فكرة إرجاع كلّ السمات الصوتية المميّزة للغة إلى مواقع قطعية منفردة، وأتى بنظرية التحليل الفوققطعي التي تهتم بتحليل الكلام إلى فونيمات قطعية Phonémesegmental، وهي أصغر وحدة صوتية (صوامت + صوائت)، وفونيمات فوققطعية Phonèmesuprasegmental وتصاحب أحيانا الفونيم القطعي، وتتمثل في النبر والتنغيم والفواصل، وسمّاها "فيرث" بالفونيمات الثانوية أو البروسوديم Prosodeme وتقرن بالمقاطع والجمل وشبه الجمل، فالتنغيم - مثلا - سمة فوققطعية في الإنجليزية على مستوى الجملة وشبه الجملة، والنبر وطول الصوت سمة فوققطعية على مستوى المقطع، وهناك لغات نغمية حيث يختلف معنى الكلمة الواحدة باختلاف درجة النغم مثل

الصينية. ويصرّ "فيرث" على أنّ الصوت والمعنى في اللغة متصلان مع بعضهما مباشرة، ويرفض رؤية التعبير والمضمون كوجهين مختلفين لعملية واحدة كما هو الحال عند "سوسير".

وعرف التحليل التركيبي في هذه المدرسة باسم القواعد النظامية أو النحو النظامي Grammaire Systématique، الذي اهتم به الفيرثيون الجدد Neo-firthingians، وهم جماعة من اللسانيين سعوا إلى تحقيق ما رفض "فيرث" القيام به، وهو إقامة نظرية لسانية واحدة متكاملة، ومن الذين نادوا بتطبيق المبادئ الفيرثية على مجال التركيب: "هاليداي Halliday" و"هادسون Hudson".

والنظام Systeme عند "فيرث" هو مجموعة اختيارات أو بدائل يمكن استعمالها في نقطة معينة من البنية اللغوية، والنحو عند أصحاب مدرسة لندن مثل الصوتيات الوظيفية عند "فيرث"، وهو يهتم بطبيعة ومضمون الاختيارات المختلفة التي يجريها الإنسان (سواء أكانت واعية أو غير واعية) عند نطقه بجملة معينة من الجمل غير المتناهية التي تتوفر عليها لغته، وهذه الاختيارات حسب هذه النظرية مبنية على تعالقات دلالية محدّدة، وهذا يعني أنه لا يمكن لنظام معين من البدائل أن يمارس نشاطه إلا إذا تمّ انتقاء اختيار معين في نظام محدّد آخر، وتقوم القواعد النظامية على ثلاثة مستويات، وهي: الشكل، ويجمع بين القواعد والمفردات، المادة، وتشمل الأصوات ونظام الكتابة، والسياق، ويعكس العلاقة الموجودة بين الشكل والموقف.

هذه - إذن - هي أهم الجوانب التي ميّزت المدرسة الإنجليزية وعلى رأسها "فيرث" الذي لعب دورا هاما في تطوير اللسانيات النظرية بصفة عامة واللسانيات الإنجليزية بصفة خاصة، واستقطبت المجالات التي تناولها بالدراسة اهتمام العديد من الأخصائيين، ومن هذه المجالات: نظرية الدلالة، منهج تحليل اللغة، المكوّن الاجتماعي، والتحليل الفونولوجي، كما ساهم في تطوير فنيات الترجمة وأساليب تدريس اللغات سواء أكانت وطنية أو أجنبية، وجاء بعد "فيرث" الفيرثيون الجدد الذين أقاموا نظرية القواعد النظامية، وهذه النظرية مازالت تحظى بقبول حسن في أوساط المنشغلين بتقدم الدراسات اللغوية.